الافتتاحية

في نهاية الثمانينات الهجرية من القرن الرابع عشر الهجري (الستينات الميلادية من القرن العشرين)، قمت مع نفر من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس بجامعة الملك سعود، بزيارة للمناطق الأثرية بالمملكة. بدأنا رحلتنا من الرياض، فالمنطقة الشرقية، مروراً بحفر الباطن وما فيه من آثار، حتى وصلنا إلى عرعر وبدنه وبدينه؛ حيث آثار العصور الحجرية مصحوبة بنقوش البادية، ثم نزلنا جنوباً إلى الجوف؛ فزرنا آثارها، ثم عرّجنا على دومة الجندل، ورأينا ما فيها من آثار ما زالت على ما هي عليه، منذ قرونٍ مضت، لم تمسها يد التطوير بعد. وذهبنا إلى مبنى إمارة الجوف في سكاكا، ولم يكن أميرها موجوداً، بل كان في إجازة، ومع ذلك وجدنا من أبناء الأمير من الحفاوة والتكريم ما أنسانا المسغبة التي عشناها طوال الرحلة؛ إذ لم تكن هناك مطاعم أو مقاهٍ يمكن أن تُغني الإنسان عن عدم الممانعة في قبول أي دعوة إلى الطعام. كان أمير الجوف آنذاك هو الأمير عبدالرحمن بن أحمد السديري، وكان أحد أبنائه الذي استضافنا هو فيصل بن عبدالرحمن السديري. ولا زالت الذاكرة تختزن كثيراً من صور الحياة هناك، ولم تكن حال المنطقة، آنذاك، بدعاً، فقد كان ذلك هو حال معظم المناطق في المملكة.

وتمر الأيام؛ فإذا بالحال، ولله الحمد، قد تبدّل، وإذا بالطرق قد امتدت، وإذا بالمدن قد اتصلت، وإذا بالحركة الثقافية والتعليمية قد انتشرت خلال عقد من الزمن. وبعد أن كنا نبحث عمن يستضيفنا، إذا بنا نُدعى إلى الجوف نعم إلى الجوف. ذهبت إلى هناك لِأُلقي محاضرة وإذا بي في قاعة واسعة، معدّة ومجهّزة بوسائل سمعية، وكانت ثمة مطبوعة ناشئة تسمى "الجوبة"، ترصد النشاط الثقافي في منطقة الجوف.

ودُعيتُ مرة أخرى، للمشاركة في ندوة عن آثار منطقة الجوف، ضمن كوكبة من العلماء، من بينهم العالم الجليل الشيخ حمد الجاسر، رحمه الله، وإذا بنا ننزل في فلل خاصة بالضيوف، في مزرعة وارفة الظلال فيها من أنواع الثمرات من الزيتون والنخيل، وإذا بمضيفنا يكون هو أول من يستيقظ فجراً ليعد بنفسه إفطار الضيوف. ولعل أمتع ما كان في الإفطار هو تذوق خبز السمح، والسمح بذور أدق من حبات السمسم، ذات لون بني داكن، يُطحن ويُصنع من طحينه أشياء مختلفة: كالعصيد، والخبز، والحلوى؛ وما ألذَّ أكلَ خُبْزِهِ بالزبد والعسل!

وكم كانت دهشتي عظيمة، حين دعى مُضيفُنا القومَ الجفلى إلى الغداء، ما ذكّرني بقول طرفة بن العبد:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

ولكن ماذا عسانا نواجه في تلك المأدبة، إننا نرى جفانا كالجوابي مصفوفة يعلوها حشو من الإبل، بداخلها خراف، وبداخل الخراف طيور مطبوخة. تراجعتُ قليلاً في أن آكل من هذه الأكوام من اللحوم، ثم أقدمت وإذا بي أجد لحمها ألذ لحم ذقته، فهو أطرى من لحم الدجاج، وأطعم من اللحوم المقدمة في أشهر مطاعم باريس! وحولنا رهط من الناس، منهم من يحمل الماء، ومنهم من يحمل اللبن، في غضار ملون بألوان زاهية، وآخرون يحملون أباريق وطسوت مذهبة، يخدمون من انتهى من الغداء. وعند مغادرتنا الجوف، وقد حفّنا مضيفُنا بالتجلة والإكرام، لم يفته أن يمنحنا مطبوعات وتسجيلات؛ من هذه المطبوعات كتابه عن "وادي النفاخ"، وديوان شعره مطبوعاً ومسجلاً. لقد كان الأمير عبدالرحمن، باعثاً للأدب والفكر في منطقة الجوف، ولذا لا غرابة أن نجده يبادل شعراء وادي السرحان، شعراً بشعر، وقصيدة بقصيدة. ولا زلت أذكر ذلك الأعرابي، الذي كان وقف بجانب سيارتنا، ونحن نغادر المزرعة إلى المطار، وهو يودعنا

بقصيدة، من أجمل ما سمعت: روعة بيانٍ، وجمال صور.

كان عبدالرحمن السديري، مرسياً لقاعدة علمية، تمثلت في مؤسسة علمية وخيرية في الوقت نفسه؛ إذ أسس مؤسسة سماها: "مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية"، جاءت تجسيداً لعملٍ كان واضحاً، ولكنه أصبح حقيقة رسمية سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣/م؛ إذ سبق ذلك تأسيسه "مكتبة الثقافة العامة" سنة ١٣٨٣هـ-١٩٦٣/م ، ثم تحوّلت إلى مكتبة تعرف اليوم باسم "دار الجوف للعلوم". وقد بدأت هذه المكتبة بكتب لا يزيد عددها عن ثلاثة آلاف كتاب، وأصبحت تضم الآن ما يصل إلى مائة وخمسين ألف كتاب، إلى جانب ما يزيد عن مائتين وخمسين صحيفة ومجلة، إضافة إلى مجموعة من المخطوطات والنقوش والنقود والطوابع التذكارية، وكل الوسائل التي تساعد كل باحث ومحتاج لما فيها من وسائل سمعية وبصرية؛ وجهاز إداري وعلمي متخصص، يؤرشّف وينظّم ويساعد ويشرف على المؤسسة.

بخٍ بخٍ مكتبة بهذا الحجم، في ذلك المكان القصيِّ عن منابع المعرفة في المدن الكبرى، فيه مكتبة تتطلع إلى أن تكون مكتبة جامعية، يتزود منها أبناء المنطقة ويعبّون من علمها ومعارفها، ليست سراباً يحسبه الظمآنُ ماءً، ولكنه معين ماء نمير، يروي الظامئ للمعرفة.

لقد أدرك عبدالرحمن السديري، بثاقب بصيرته، طبيعة مجتمع الجوف، وميوله الفطرية، وما يمارسه من أعمال يحسن صنعها؛ فاستطاع أن يجمع القوم على مهرجان سنوي، بدأ بسباق للهجن سنة ١٣٨٣هـ، واستمر حتى سنة ١٤٠٥هـ، وكان لهذا المهرجان أثره الفاعل، في الاهتمام بالسلالات المتميزة من الهجن، لفت أنظار المناطق الأخرى، ما جعل المهرجان يتطور ليسلك مسالك أخرى في مجالات الزراعة ومنتجاتها وصناعة السدو ذي الألوان البهيجة. وقد شهدتُ أحد هذه المهرجانات، فرأيتُ كيف كان المواطنون يتسابقون في عرض جمالهم وأغنامهم، وإنتاج مزارعهم من أفضل أنواع التمور والثمار والعسل وغيرها، وكانت الجوائز تمنح لأفضلها في كل ما يعرض.

ويستمر إصدار "الجوبة"، كراصد للحركة الثقافية، ثم توقفت؛ فخلفتها "أدوماتو" للخروج من المحلية إلى العالمية، وللاهتمام بجانب، لم يلتفت إليه أحد من قبل، هو الربط بين علماء الوطن العربي، عن طريق التعرف على الجذور، التي تجمع بين العرب، في زمن إنصرف فيه الناس إلى مباهج الحياة. ولكن الحنين إلى "الجوبة" أعادها مرة أخرى، ليصبح هناك رافدان، أحدهما يهتم بالنشاط المحلي، وأدوماتو لكل من ينتمي نسباً أو معرفة إلى حضارة تمتد من الخليج إلى المحيط .

لقد أسلم الأمير عبدالرحمن بن أحمد السديري الروح لله عز وجل، يوم الأحد ٢٦ من شهر صفر سنة ١٤٢٧هـ الموافق ٢٦ مارس سنة ٢٠٠٦م، وهو قرير العين؛ إذ قدَّم لأمته ذخراً عظيماً في مجال الثقافة والمعرفة، ينعم به شبابُ الأمة وعلماؤها، وترك أبناء ومحبين يحملون الرسالة من بعده، في مراكز حضارية أخرى في هذا الوطن المعطاء.

*****

الأعياد عادة ما تكون أياماً أو أسابيع، ولكن عيد مسقط سيستمر عاماً كاملاً؛ لأنها توجّت عاصمة للثقافة العربية لهذا العام ٢٠٠٦ م، وحق لها أن تكون؛ فهي عاصمة لسلطنة تحمل عبقاً تاريخياً، يعود لعشرة آلاف عام أو يزيد، لأن موقعها الجغرافي جعل منها ممراً بحرياً عالمياً، فهي تسيطر على البحر العربي، ومنه تتصل بالساحل الشرقي لقارة إفريقيا، وعلى الخليج العربي الذي تتصل منه بفارس والهند، وهو جزء من الساحل الغربي لقارة إفريقيا فهي بذلك تتعامل مع أمم شتى شرقاً وغرباً، وتؤثر وتتأثر بحضارات تلك الأمم، وتنقل للجزيرة العربية تقاليد أولئك الأقوام وأعرافهم وحضارتهم.

كانت عاصمة الثقافة العربية قد بدأت احتفالاتها بندوة عالمية عن "آثار شبه الجزيرة عبر العصور"، اجتمع فيها كوكبة متميزة ممن لهم علاقة أصيلة بالجزيرة العربية، إما عن طريق دراسة ومشاهدة، وإما عن طريق تنقيب وفحص ومقارنه لما عثروا عليه؛ فاجتمعت لذلك خبرات تطرح علمها بالكلمة والصورة، عن عصور سبقت، عاشتها سلطنة عمان منذ العصور الحجرية المبكرة حتى عصر الحضارة المعاصرة، آلاف السنين تمر أمامنا في محاضرات مرتّبة حسب الأزمنة، وعلماء أجلاء يعرفون للكلمة قدرها وللمعلومة أهميتها. فكانت الندوة حواراً علمياً لحضارات مرت بين الصين والهند شرقاً والجزيرة العربية وما جاورها وإفريقيا غرباً.

وما لا شك فيه، أن وراء تنظيم هذا الحشد المتميز من العلماء، وهذا البرنامج المتدرج زماناً ومكاناً، قدرة فائقة، وتجربة رصينة، تمثلتا في الكفاءات العلمية التي تعمل في وزارة التراث والثقافة العمانية، تحت قيادة وتوجيه صاحب السمو السيد هيثم بن طارق آل سعيد، وزير التراث والثقافة، ووكيله، سعادة المهندس سلطان بن حمدون الحارثي، وجمهرة الشباب والشابات، الذين عملوا، بحب وإخلاص وتفاؤل، وفي مقدمتهم الأستاذ حسن بن محمد اللواتي، مدير عام الآثار والمتاحف بالوزارة، الذي وجّه الدعوة إلى العلماء والباحثين، والسيدة بيوبا بنت علي الصابري، مديرة دائرة التنقيب والدراسات الأثرية، التي تابعت الاتصال مع من وجّهت لهم الدعوة.

لقد كان شيئاً مشرّفاً، أن يقوم أبناء عُمان بهذه الأعمال الجليلة، وكم تكون فرحتنا كبيرة، عندما نتسلم جميع الأعمال في مطبوعة، تأخذ مكانها في المكتبات العلمية، مصدراً للباحثين وطلاب المعرفة.

*****

بعد نهاية ندوتنا عن "المدينة في الوطن العربي في ضوء الاكتشافات الآثارية: النشأة والتطور"، وصدور العدد الثاني عشر من أدوماتو شعرنا أننا في حاجة إلى إعادة النظر في هيكلة المجلة، التي استطاعت، ولله الحمد، أن تصمد ست سنوات دون توقف. وكنا خلال هذه الفترة، نرصد تعاون الهيئة الاستشارية، وما قدمه كل عضو لهذا المولود، في سبيل دعمه وجعله قادراً على السير قدماً، يرفده بأبحاث أو يرسل ملاحظات واقتراحات عقب صدور كل عدد من أعدادها، أو الاهتمام بتقارير الأبحاث التي نرسلها للتحكيم، وبطرق شتى غيرها.

وكانت الندوة فرصة مناسبة، للاقتراب من باحثين ذوي سمعة عالية، لا يزالون يمارسون العمل العلمي في مجال أبحاث الجزيرة العربية والمدينة العربية، بناءً على تنقيبات أثرية. إننا عندما أعدنا النظر في الهيئة الاستشارية لم نضع من اخترناهم بناءً على أفضلية هؤلاء على من سبقوهم، ولكن للتعريف بالمجلة في أوساط علمية جديدة، فقد سعدنا بصحبة أولئك ست سنوات، وما زلنا نشعر بأنهم أصبحوا من أهل الدار، ومن حقنا أن ندعو آخرين ليشاركونا المسئولية.

لقد عاتبنا بعض من رأى أن اسمه لم يَعُدْ ضمن الهيئة الاستشارية الجديدة، وهنا نبعث إليهم بكل التقدير والإعجاب، بمرحلة كانوا فيها خير داعمين، وربما سيسعدون معنا بصحبة من أصبحوا ضمن الهيئة، لأننا جميعاً قدامى ومحدثين سوف نسير في قافلة المعرفة، عن تراث الوطن العربي من المحيط إلى الخليج.

رئيس هيئة التحرير